

بسم الله الرحمن الرحيم

((مقدمة في أعمال القلوب وضرورة العناية بها))

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأكرمه بهذا الدين القويم ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة {وَاتَّكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم:34] ولذا كان الشكر سبيل عباد الله الصالحين، ودأب أولياء الله المتقين من أتباع الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وإذا ما نظرنا إلى تركيب هذا الإنسان وجدنا خالقه العليم به وبما يصلحه قد ركبه من عنصري الروح والجسد قال سبحانه : {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [السجدة:9] ، وشرع لهما ما يصلح شأنهما ، فجعل شرائع لأعمال القلوب وأخرى للجوارح ، وقدّر بينهما من التلازم والترابط ما لا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر . فلا يمكن أن تستقيم أعمال القلوب الباطنة إلا بانقياد الجوارح الظاهرة وكذلك الأمر فيما يتعلق بالجوارح ؛ فاستقامتها رهن بسلامة القلوب ، واستقامتها ؛ ولأجل ذلك قال الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه "القلب ملك والجوارح جنوده، فإذا صلح الملك صلحت الجوارح، وإذا خبث الملك خبثت جنوده"^(١).

^(١) مصنف عبد الرزاق - باب القلب 20375 (11 / 221)

ولهذا نجد أن الإسلام قد اعتنى بأعمال القلب أشد العناية ، فجعل عمل القلب هو صلب قضية الإيمان في كل وقت وحين ، وقطب رحاها الذي حوله تدور ، قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس: 57-58]

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال: 24].

فتضمنت هذه الآية: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم . فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له ، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهراً وباطناً ، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان ، قال تعالى : { أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام: 122] .

وجاء في حديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه الطويل وفيه : ((إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهاة لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب))^(١).

^(١) صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي 52 (1 / 20) ، صحيح مسلم باب أخذ الحلال وترك الشبهات.. 4178 (50 / 5).

وقد عظم العلماء هذا الحديث فعدوه رابع أربعة تدور عليها الأحكام ، بل أشار القاضي أبو بكر ابن العربي إلى أنه يمكن أن ينتزع منه وحده جميع الأحكام ، قال القرطبي : "لأنه اشتمل على التفضيل بين الحلال وغيره ، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلوب ، فمن هنا يمكن أن ترد جميع الأحكام إليه " (٣).

وعليه ؛ فإن ، أعمال القلوب التي تسمى (المقامات والأحوال) هي من أصول الإيمان ، وقواعد الدين ومنها محبة الله عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك من أعمال .

والناس في هذا على ثلاث درجات :

1- ظالم لنفسه .

2- مقتصد .

3- سابق بالخيرات .

فالظالم لنفسه : العاصي بترك مأمور أو فعل محظور .

والمقتصد : المؤدي الواجبات والتارك المحرمات .

والسابق للخيرات : المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون لهم ذنوب تُمحي بتوبة أو بحسنات ماحية ، أو بمصائب مكفرة ، أو بغير ذلك . والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

(٣) انظر : فتح الباري (1 / 129).

قال الله تعالى : {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنِ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر:32] ، وكل من المقتصد والسابق بالخيرات هم من أولياء الله الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي الوارد في البخاري : ((إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته.))^(٤).

ومن عناية القرآن بالقلب وأعماله فقد جاءت القلوب على أقسام :

1- القلب السليم : وقد ذكر الله تعالى له أكثر من اثنتي عشرة صفة ومنها : الخشوع والاطمئنان ، والإنابة ، والوجل ، والإحبات ، واللين ، والربط ، والوحدة ، وعدم التعدد والسلامة ، والتقوى ، والهداية ، والطهارة .
والأمر الجامع لذلك كما يقول ابن القيم : " أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، مسلم من عبودية ما سواه ، ومسلم من تحكيم غير رسوله " ^(٥).

2- وفي مقابل هذه القلوب السليمة نجد أن الله تعالى قد ذكر لنا القلوب الأخرى وهي الميتة ، والقلوب السقيمة المريضة محذرا منها ومن الأسباب المؤدية إليها ، وذكر لها أربعة وعشرين وصفاً ، كالختم والطبع والريب والغفلة وعدم الفقه والزيف والعمى والقسوة وغيرها .

^(٤) صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي 6502 (8 / 131).

^(٥) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان - (1 / 7).

ومع هذه العناية والوضوح الدالة على اهتمام الإسلام بالقلب وأعماله إلا أن الناس بعد أن بعدوا عن عصر النبوة كثر كلامهم وقل عملهم واستبدلوا الكلام النظري والمعرفة التجريدية الباردة بالإيمان العملي التطبيقي الذي أمروا به وساعدت على ذلك دخول العلوم ذات الأصول اليونانية كعلم الكلام وغيره ، وراج الإرجاء وعم البلاء فكان لزاماً على الغيورين أن يعتنوا بهذا الأمر العظيم كما فعل أسلافهم من سلفنا الصالح رحمة الله عليهم وأن يبينوا للناس ما نزل إليهم من ربهم ، وأن ينبهوهم إلى ما غفلوا عنه من أصول دينهم من أعمال القلوب وغيرها بعد أن طغت الماديات ، وكثرت الشبهات والشهوات ، وما يلقى شياطين الإنس والجن في الأسماع من الألفاظ ، وفي القلوب من الشبه والشكوك بواسطة الوسائل الحديثة مما أدى إلى انتشار هذه الأمراض وتأصيلها في القلوب ومما لا شك فيه أن مرض القلوب المعنوية أكثر من مرض الأبدان وأخطر وذلك لأسباب منها :

1- أن المريض به لا يدري أنه مريض فيسارع إلى المعالجة .

2- أن عاقبة مرض القلوب غير مشاهدة لكثير من الناس ، والإحساس ، بآلام هذا المرض قليل بخلاف مرض البدن .

3- وهو الداء العضال : قلة الأطباء لأمراض القلوب وندرتهم ، خاصة في هذه الأزمان المتأخرة ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد تأثر كثير منهم بهذا المرض وهم يشعرون أو لا يشعرون إلا من رحم الله ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

لذا فإن من اللازم على هؤلاء الأطباء ، خاصة من يسر الله لهم شيئاً من وسائل التوجيه كالمنابر والتعليم والإعلام أن يولوا هذا الموضوع الخطير عنايتهم حرصاً على سلامة قلوبهم وعلاجاً ووقاية للآخرين .

نسأل الله العلي الكريم أن يطهر قلوبنا وأن يصلحها كما نسأله عز وجل أن يصلح أحوالنا
ما ظهر منها وما بطن ،اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها
ومولاها صلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بقلم: عبدالله عمر الدميحي